بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 35 **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة لقمان**

التاريخ:19\01\2022 م **كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني**

بقي الكلام في الآية الثامنة عشر في التذييل الذي جاء فيها، وهي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾.

مفردات هذه الآية تقدم شرحها في أثناء البحث، هذا التعبير ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ﴾ تكرر في القرآن الكريم بكثرة، ففي سورة النساء جاء في ذيل الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتالاً فَخُوراً﴾[1] وفي سورة الحديد جاء في ذيلها: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾[2] فعموماً التعبير بـ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ﴾ وبـ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ﴾ كثير في القرآن الكريم، فـ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ﴾[3] ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[4] و﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ﴾[5] و﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[6] و﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ﴾[7] ﴿وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[8] هذه كلها تذييلات في آيات قرآنية، في قبالها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[9] و﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾[10] و﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[11].

فهذا التعبير نفياً وإثباتاً كثر في القرآن الكريم، وباعتبار أنه ثبت في علم المعقول والكلام، أن الصفات التي تجري على الممكنات من منطلق خصوصية إمكانهم، التي لها ميل، وترتبط بعالم المادة، لا تطلق على الله سبحانه وتعالى بذات المعنى، وهذا نظير استعمال التمني والترجي على لسان الباري تبارك

---

[1] النساء 36
[2] الحديد 23
[3] البقرة 205
[4] البقرة 276
[5] الأنفال 58
[6] البقرة 190
[7] آل عمران 32
[8] آل عمران 57
[9] البقرة 195
[10] الصف 4
[11] البقرة 222

وتعالى في القرآن الكريم، فإن التمني والترجي الذي يصدر من الإنسان بهذا المعنى نفسه لا يصح أن يصدر من الله سبحانه وتعالى، وهكذا الحال في المعنى الحقيقي للاستفهام، لكن هناك بحث في علوم البلاغة أنه على الرغم من ذلك، لا تكون هذه الاستعمالات في القرآن الكريم استعمالات مجازية، ففي قوله تعالى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّيَ إِلهَيْنِ﴾[12] الاستفهام لطلب الفهم، وطلب الفهم فرع الجهل، فلا يقال في حق الله سبحانه وتعالى.

المدارس القديمة في علوم البيان قالت: هذا الاستعمال استعمال مجازي، حلت المشكلة بالالتزام بالمجازية، أن الهمزة وأداة الاستفهام وضعت لطلب الفهم، وفي هذه الآية استعملت في التقرير، فاستعمل اللفظ في غير ما وضع له، فصار مجازاً.

لكنكم تعرفون أنه وفقاً لما وصل إليه التحقيق الأصولي عند المتأخرين من أعلامنا، أنكروا الالتزام بالمجازية، وإنما الاختلاف كان في الدواعي، استعمل أداة الاستفهام في طلب الفهم، لكن بداعي التقرير.

فإذن عدم إمكانية حمل المعنى الذي نحمله على الممكنات على الله سبحانه وتعالى لا يلازم أن يكون الاستعمال استعمالاً مجازياً. وهذا تحقيقه خارج عن بحثنا.

فيما نحن فيه، حب الإنسان وكره الإنسان ناشئ من هذه التقلبات النفسانية، لا تقال في حق الله سبحانه وتعالى، لكن عندما ندقق ونسرد هذه الآيات التي ورد فيها ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ﴾ و﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ﴾ نفهم بوضوح أنها جاءت لداعي النهي والطلب، ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ﴾ فإذن هو ينهى ويطلب من الإنسان الابتعاد عن الفساد، ﴿اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: يقربهم إليه، لا بمعنى التقريب المادي، ويرفع من شأنهم ومن مقامهم، فالإحسان مطلوب لله سبحانه وتعالى. هذا هو المقصود من مثل هذه التعابير.

قبل أن ندخل في آية جديدة، بقي نكتة لطيفة لابد من الإشارة إليها: عرفنا من سياق البحث السابق أنه يوجد ترابط وثيق بين الآية السابعة عشر: ﴿يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ ...﴾ وبين الآية الثامنة عشر: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ...﴾ أن هناك ارتباط وانسجام وثيق بين هاتين الآيتين.

---

[12] المائدة 116

نلاحظ في الآية الأولى، والتي اتبع الباري فيها أسلوب الأمر[13] ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فاستفيد منها من أسلوب الأمر. ونلاحظ في الآية الثانية استفيد في الموعظة والوصية من أسلوب النهي.

في الآية الأولى قدم كما عرفنا ما يرتبط بالكمال على ما يرتبط بالتكميل، ما يرتبط بكمال النفس على ما يرتبط بتكميله الغير ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ هذا في أسلوب الأمر، وفي أسلوب النهي عكس الأمر ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ بناء على التفسير المشهور، وهو التكبر على الناس، والذي يرتبط بالذات ﴿وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً﴾ الفخر، فعكس، ففي أسلوب الأمر قدم ما يرتبط بالكمال على ما يرتبط بالتكميل، وفي أسلوب النهي قدم ما يرتبط بالتكميل على ما يرتبط بالكمال، بعدما شرحناه سابقاً بالترابط بين هاتين الآيتين، فما هو السر في ذلك؟ هل هذا مجرد كلمات مصفوفة؟ ففي كلمات الفصحاء والبلغاء هذا تفنن في التعبير، وعلى طبق مدرسة السكاكي لكي لا يمل السامع من أسلوب واحد، فتتنوع في التعبير لتوجد عند السامع طراوة ونشاط فيقدم عليك.

هذا التفنن في التعبير لا أرى مناسباً أن يطرح في كلام الله سبحانه وتعالى، بل لابد أن يكون هذا التفنن في التعبير ناشئاً عن غرض وعن مقصود مهم، لا مجرد إرادة التفنن في التعبير لتنشيط السامع، هذا وإن كان، فلا بد أن يكون غرضاً ثانوياً، وليس هو الغرض الأصلي في مثل هذه الآيات الكريمة.

في أسلوب الأمر عرفنا أن تكميل الغير فرع تكميل النفس، لهذه القاعدة العقلائية "فاقد الشيء لا يعطيه" على مستوى التأثير أيضاً، فقد على مستوى الصور قد يحصل، واحد يأتي يعطي موعظة وهو في الواقع لا يتعظ، على المستوى الشكلي قد يحصل، لكن أيضاً على مستوى التأثير لا يكون مؤثراً إلا إذا كان ناشئاً عن العمل، عن تكميل النفس. نعم، قد نخدع الناس، ولكن إتباع الناس لكلامنا إنما يكون مؤثراً إذا اعتقدوا بأننا نعمل بما نتكلم به. فإذن سواء على مستوى الواقع أو على مستوى الإثبات والتبليغ، تكميل النفس مقدم على تكميل الغير، وبما أنه استعمل أسلوب الأمر عن أسلوب الطلب، فلا

[13] طبعاً ليس من الضروري أن لقمان الحكيم عليه السلام عبر بهذه التعابير نفسها، إنما هذه حكاية القرآن الكريم لما ذكره، قد يكون بلغة أخرى، وهذا لا شك فيه

بد أن تقوم بالوظيفة التي يترتب عليها وظيفة أخرى قبل تلك الوظيفة، فجاء أسلوب الأمر على وفق هذه القاعدة، وفي محله.

عندما جاء أسلوب النهي في الوصية عكس الأمر، التفت جيداً إلى حقيقة أن الإنسان الذي يكمل نفسه قلنا يصبح في مظنة الاعتزاز بنفسه والفخر لا أنه يتكبر على الآخرين، بل مثل هذا الإنسان يسعى كي لا يتكبر على الآخرين؛ ليتبقى نفسه عنده مرتفعة، فيكون هو في الواقع يعبد الأنا، هو يعرف بأن التكبر مفسدة، فلذا يشعر بالزهو، لا أنه يتكبر على الغير، فالذي يزهو لكماله لا يتكبر على الغير، فلو قدمته الآية، وقالت: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحا﴾ أي: لا تزهو بكمالك، لتضمنت أن لا تتكبر على الغير؛ لأن الإنسان الذي يكمل يقع فريسة الزهو، لا التكبر على الغير، لا يتكبر على الغير، فلو قدمته الآية الشريفة لاستغنينا حينئذ عن أن نقول: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ بخلاف ما لو قال له: لا تتكبر على الغير. يبقى مجال لأن يقول له: ولا تعيش في نفسك حالة الفخر. فإذن كان الأنسب في أسلوب النهي أن نقدم ما يرتبط بالغير على ما يرتبط بالنفس، فعكس الأسلوب لهذه النكتة.

الآية التاسعة عشر، وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.

وصية أخرى مهمة من وصايا لقمان عليه السلام لابنه، ومن خلفه سائر البشرية، خصوصاً أن الله سبحانه وتعالى أنزلها في كتابه، إذن هي للجميع.

الإنسان في تحقيق أهدافه يستعمل أسلوبين: أسلوب الفعل، وأسلوب القول. فتريد شيئاً إما أن تمشي إليه وتقصده، وإما أن تطلبه، فتستعمل إما الفعل وإما القول. فأراد لقمان عليه السلام لابنه أن يكون معتدلاً في هاتين الأداتين، أن يمارس طريقة الاعتدال، ففي الفعل قال له: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ وفي القول قال له:﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ ثم مثال مثالاً على الثاني، على قبح ما ينافي ما طلبه، وهو﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ حيث قال: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ ومن هنا يأتي سؤال في الآية، لماذا لم يمثل لما ينافي الطلب الأول ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾؟ وإنما مثل لما ينافي الطلب الثاني، تفصيل البحث في هذه الآية يأتي عليه الكلام.